المخطوطات العربية في الجامعات المصرية

أ. د. عبد الستار الحلوجي(*)

منذ أكثر من أربعين عاما تقدمت إلى جامعة القاهرة برسالتي للدكتوراه وكان موضوعها "المخطوط العربي في نشأته وتطوره" . وأكبر ظني أنها أول عمل أكاديمي يتناول هذا الموضوع. ومن يومها، بل وقبل هذا التاريخ ببضع سنين وأنا وثيق الصلة بالمخطوطات، وما كان لي أن أنجز هذه الرسالة لو لم أكن يومها موظفًا بدار الكتب، وفي قسم المخطوطات بالذات.

ومنذ ذلك التاريخ البعيد ظهرت كتب عن المخطوطات، وقُدِّمت رسائل تدرس مجموعات منها، وبعض هذه الرسائل أعمال علمية جيدة، وبعضها الآخر أعمال هابطة بكل أسف. وهذه الفئة الأخيرة – من وجهة نظري على الأقل – أبناء غير شرعيين لهذا التخصص وأنا أعدّها كذلك؛ لأن أصحابها كتبوا عن مجموعات من المخطوطات وهم بعيدون عنها، ومعلوماتهم عنها سماعية تلقوها من العاملين في المكتبات ومن بعض السجلات والفهارس دون أن يتعاملوا مع المخطوطات نفسها ويتعرفوا على ملامحها وفنونها، ودون أن يواجهوا شيئا من مشاكلها. وهم في نظري أشبه بطالب من أبناء المدن دخل كلية الزراعة وهو لم ير الريف قط، ولا يفرق بين البقرة والجاموسة ولا بين نبات الأرز ونبات القمح، ولا يعرف أن أولهما يزرع في الصيف والثاني يزرع في الشتاء.

المخطوطات بالنسبة لي تاريخ ورفيق حياة. يعرف ذلك كل الذين يكتبون عن المخطوطات لا في مصر وحدها، وإنما في مصر والعالم العربي كله. ومن أجل هذا فإنني أحمل من همومها ما لا يحمله الكثيرون، وآسى لما صارت إليه أحوالها أكثر مما يأسى كثيرون حتى من المسئولين عنها.

وبداية أود أن أعرب عن قناعتي بأن المكتبة الوطنية في أي دولة ينبغي أن تكون الملاذ الآمن لكل مخطوطاتها، تحفظها وتصونها وتفهرسها وتتيحها للباحثين اطلاعا وتصويرا. وأنا أقول ذلك انطلاقا من أن الوظيفة الأساسية لأي مكتبة وطنية هي حفظ تراث الأمة وإتاحته للأجيال المتعاقبة من أبنائها. وفي بعض الدول العربية التي تأخرت فيها نشأة المكتبات الوطنية، نهضت بعض جامعاتها بمهمة اقتناء التراث المخطوط كما حدث في المملكة العربية السعودية على سبيل المثال. أما في مصر فعمر المكتبة

---

* أستاذ المكتبات والمعلومات ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة.

الوطنية بلغ أربعين عامًا بعد المائة. ولذا فهي أقدم مكتبة وطنية في العالم العربي. وعندما اختار لها علي مبارك موقعها في باب الخلق كان اختيارا موفقًا لأن هذه المنطقة يومها كانت تمثل وسط القاهرة، ولأن الجامعة الوحيدة التي كانت موجودة في مصر آنذاك هي الأزهر، وباب الخلق على مقربة من حي الأزهر، وشارع الخليج المصري (بورسعيد حاليا) كان سوقًا للكتبيين. ومعنى هذا أن الرجل لم يكن صاحب فكرة إنشاء المكتبة فحسب، وإنما كان صاحب رؤية بصيرة استطاعت أن تختار لها أنسب موقع في قاهرة المعزّ. موقع متميز بالتوسط من ناحية، وبقربه من المؤسسات التعليمية وسوق الكتب من ناحية أخرى.

ومن يومها تلقت المكتبة مجموعات نادرة من المخطوطات أهداها أصحابها للمكتبة، نذكر منهم: أحمد تيمور باشا، وأحمد زكي باشا، وطلعت، وحليم، وخليل أغا.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أنفس ما تقتنيه المكتبة من المخطوطات لا يوجد في رصيدها العام وإنما في هذه المكتبات الملحقة التي كان أصحابها من العلماء الأجلاء، فأحسنوا اختيار مجموعاتها؛ لأن اختيار المرء وافد عقله كما يقال. وقديمًا اختار الشاعر العملاق أبو تمام الطائي مجموعات شعرية ضمنها " ديوان الحماسة" فحظيت بشهرة ذائعة وشرحت شروحًا كثيرة، وانتشر مسمى " الحماسة " فهناك حماسة البحتري، وحماسة ابن الشجري، وغيرهما. وقيل: إن أبا تمام في حماسته أشعر منه في شعره، أي أن براعته في الاختيار قد فاقت براعته في الإبداع.

المكتبة الوطنية إذن هي موئل مجموعات المخطوطات في أي دولة، أو هكذا ينبغي أن تكون. وهكذا بدأت الكتبخانة الخديوية. ومرت سنون وظهرت الجامعات الحديثة وبدأت مكتباتها تقتني بعض المخطوطات إلى جانب ما تقتنيه من مطبوعات. وبدأنا نرى عجبًا. والعجائب عندنا كثيرة، وأكتفي بذكر نموذجين يثيران في النفس غير قليل من الأسى:

فقد أرادت جامعة عين شمس يومًا ما أن تتخلص من بعض مقتنياتها وأن تتودد إلى مكتبة الإسكندرية فأهدتها مجموعة من مقتنياتها وكان منها المخطوطات، ويبدو أن مكتبة الإسكندرية فوجئت بالهدية ولم تصدق نفسها فتساءلت إن كانت مكتبة الجامعة جادة فيما فعلت. وشكلت الجامعة لجنة لدراسة الموضوع كنت أحد أعضائها، وكتبت اللجنة رأيها بصراحة وحسم. ولست أدري هل كان لقرار اللجنة صدى أم أنه ذهب أدراج الرياح، وما أكثر ما يذهب أدراج الرياح في بلادنا.

هذا هو المثال الأول، أما المثال الثاني فهو جامعة القاهرة التي تقتني مكتبتها المركزية ما يقرب من خمسة آلاف مخطوط لا يعرف جمهور الباحثين عنها شيئا. وأذكر أن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن عرضت على المكتبة منذ بضع سنين أن تمول مشروع فهرسة هذه المجموعة، وأن تدفع للمكتبة خمسة دولارات نظير فهرسة كل مخطوط على أن تتولى المكتبة اختيار المفهرسين ومكافأتهم، وعلى أن تقوم مؤسسة الفرقان بطبع الفهرس على نفقتها وإهداء المكتبة نصف عدد النسخ التي تطبع.

وترددت المكتبة ودارت مكاتبات بين الطرفين لأكثر من سنة بين أخذ ورد بدءًا من طلب رفع المقابل المادي لفهرسة المخطوط، واستجابت مؤسسة الفرقان فرفعته إلى الضعف (من دولارين ونصف إلى خمسة دولارات). ثم ضاع عقد الاتفاق في أدراج المسئولين بالمكتبة والجامعة، أو هكذا قيل وقتها، فأرسلت المؤسسة صورة منه ولكن يبدو أن هذا لم يكن السبب الحقيقي. وانتهى الموضوع نهاية مؤسفة بأن اعتذر مدير المكتبة عن عدم إمكانية تنفيذ المشروع بحجة أن المكتبة مشغولة بعملية الانتقال إلى مبنى جديد.

وتمضي السنون، وتُفتتح المكتبة الجديدة للجامعة، وتستقطب أفضل العاملين، كما تقتني أحدث المطبوعات، وتبقى المطبوعات القديمة والمخطوطات بالمبنى القديم. وإلى هنا يمكن أن نلتمس للمسئولين شيئًا من المنطق. أما الذي لا سبيل إلى قبوله أو تفسيره فهو تكديس المخطوطات في حجرة لا يقترب منها أحد، ولا يعرف أحد ما تضمه من مقتنيات، وكأنها مواد محظورة لا يصح الاقتراب منها أو التعامل معها. فلا هي فُهرست، ولا هي رُمِّمت، ولا هي صوِّرت، وإنما تركت للقوارض والحشرات والآفات تنخل ورقها نخلاً وهي في أمان كامل. وكيف لا تأمن والمسئولون عن المكتبة والجامعة يحرسونها من وراء الأبواب، ويضمنون أن أحدًا لن يزعجها، ولا أظن المسئولين عن الجامعة وعن مكتبتها يجهلون أن قيمة أي كتاب تقتنيه المكتبة مرهونة باستخدام الباحثين له، وأي كتاب لا يستفاد به فإن شراءه فيه إهدار للمال، وفهرسته فيها إهدار للجهد البشري، ووضعه على رف المكتبة فيه إهدار للمساحة التي ينبغي ألا يشغلها إلا ما يحتاجه جمهور المكتبة من مصادر المعرفة. ولعل هذا هو الفرق بين المكتبة والمتحف، فالمتحف يعرض مقتنياته ليتعرف عليها الجمهور، ولكنه لا يتيحها لأفراد هذا الجمهور تحت أي ظرف من الظروف.

لقد كنت أتمنى أن تحتفظ مكتبة الجامعة بنسخة مرقمنة لمخطوطاتها، وأن تسلّم الأصول لدار الكتب تجري عليها ما تحتاجه من صيانة وترميم وفهرسة وتصوير. أما أن تُعتقل المخطوطات وتحدد إقامتها، ولا يسمح لأحد بالاطلاع عليها، فذلك أمر غريب يحتاج إلى تفسير. ومن حقي ومن حق غيري أن نتساءل: لمصلحة مَنْ تظل هذه المخطوطات حبيسة ومجهولة للباحثين بحجة الخوف عليها من السرقة أو الضياع؟ وما قيمة الحفاظ عليها إذا لم يستخدمها أحد؟ وإذا لم تخضع من الآن للصيانة والترميم وللفهرسة والتصنيف والرقمنة فمتى يحدث ذلك؟

إنني أخاطب الضمير العلمي للمسئولين عن الجامعة ومكتبتها، وأرجو أن يتحمل المتخصصون منهم مسئوليتهم بشجاعة الرجال، وألا يخالفوا ضمائرهم مجاملة لأحدٍ أو حرصًا على منفعة عاجلة، وأطالبهم بأن يصدعوا بكلمة الحق لأن التاريخ لن يسامحهم، ولن يغفر لهم أي تقصير في حق هذا التراث المخطوط، وهو ليس تراثًا لجامعة القاهرة، ولا لمصر وحدها، وإنما هو تراث الأمة العربية كلِّها.

ألا هل بَلَّغت؟ اللهم فاشهد.